الاستعمار الأوروبي وأثره في البنية الاجتماعيّة المصريّة قراءة في منظور المستشرق الفرنسي جورج بالانديه

أحمد محمّد عبد الغني[1]

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى دحض المزاعم الإمبراطوريّة الغربيّة حول حضارة أوروبيّة تفوّقت في بنيتها على باقي الشعوب، ولقد اتّخذت الدراسة لأجل هذه الغاية استكشاف فترة الاستعمار غير الرسمي لمصر، ففي تلك الفترة بدت البنية المصريّة مختلفة عن البنية التقليديّة المتخلّفة مقابل البنية الجديدة الوافدة. ولقد تميّزت هذه البنية بأنماط اجتماعيّة جرى تأصيلها من جانب المؤرّخ الفرنسي جورج بالانديه وفق منهجه المابعد حداثي. فهي بنية لا تضحّي بالحقائق؛ إلّا أنها تؤشّر إلى المواقف الملموسة للبنية الأهلية المصريّة تحديدًا الطبقات الاجتماعيّة العليا غير الرسميّة، مثل النقابات الحضريّة، كأنموذج ثوري ومدني حيّ قبل مجيء النظام الاستعماري البريطاني. وفي هذا السياق، نؤكّد وجود تنوّع للتجارب والممارسات اليوميّة للمثقّفين صانت الحدود الاجتماعيّة، وأعادت إنتاج الهويّة المصريّة الوطنيّة، ولعلّ هذا هو السبب وراء تدخّل الاستعمار الثقيل لكبحها. وهو الأمر الذي يدفعنا إلى استخلاص حقيقتين؛ أوّلهما أن الاستعمار نشاط يهدم بنى المجتمع لصالح حداثته المزعومة، وثانيهما أنّ الاستعمار مجرّد لحظة تاريخيّة، وليس أفقًا حضريًّا.

١. أستاذ علم الاجتماع السياسي، جامعة بني سويف - مصر.

غاية الدراسة تقديم وشرح ونقد منهج ما بعد الحداثة عند بالانديه، ولا سيّما لجهة فضح غطرسة الاستعمار الأوروبي، وتفكيك مقولاته، وتجزئته للتاريخ في مجموعة من القصص، وحصره في منطق ثنائي لا نهاية له عن التعارض بين «هم» و«نحن». ولقد اعتمدت لهذه الغاية على مجموعة من الوثائق والمراجع والمقالات والبحوث والدراسات.

المقدّمة

تقع مصر في أرض ثلاث قارات وخمسة بحار، ما جعلها حلقة وصل رئيسيّة في الخطط الاستعماريّة البريطانيّة في أفريقيا والشرق الأوسط. عام ١٨٨٢م احتلّ البريطانيّون مصر، وعلى مدى السنوات العشر الأولى من الاحتلال تطوّر نظام الحكم البريطاني تدريجيًّا. ولعلّ أهم محاولات المسؤولين البريطانيّين هي إخفاء السلطة، وعدم تحدّي **البنية الطبقيّة** القائمة عبر تعيينهم كمستشارين للوزراء المصريّين أو كمفتّشين في المقاطعات؛ لذلك لم تكن سلطتهم مستترة عن المراقبين المطّلعين، إلّا أنّه لم يكن لديهم سوى وظائف استشاريّة في الإدارة. علاوة على ذلك، كان نفوذهم محدودًا في وزارة الحرب وعند العامّة[1]. وتبذل محاولة هنا بغرض فحص الحقيقة وراء مزاعم الاستعمار تجاه مصر، بسبب العلاقة المتنامية بين المشروع الاستقلالي المصري، والمشروع الاستعماري اليوم، والنقاش أيضًا حول المجتمعات التي تعيش حالة من الأزمة الكامنة بدرجات متفاوتة، والتي تعاني من نوع من **الأمراض الاجتماعيّة** عند مؤيّدي فكرة الاستعمار الجديد (علاقة المنفعة المتبادلة). وتنخرط الورقة في المناقشة الجارية من منظور بالانديه كقيمة مضافة للأدبيّات في هذا الصدد، وعليها تمّ جمع البيانات لغرض البحث الحالي. وحسبي في ذلك قول الفيلسوف الاجتماعي الشهير فرانز فانون **(Fanon)** أنّ الاستعمار لا يكتفي بمجرّد السيطرة على الشعب، وإفراغ عقله من كلّ شكل ومضمون، ويتّجه بنوع من المنطق المنحرف إلى ماضي الشعب المظلوم، فيشوّهه ويدمّره. إنّ هذا العمل الذي يحطّ

1. Wu, Z., Colonized colonialists-alternative colonialism, Journal of Political Science Research, P.5.

من قيمة تاريخ ما قبل الاستعمار يكتسب أهميّة جدلية اليوم[١]. وبصورة عامّة، نتعرّف على معارضة «المجتمعات المغلقة»، كما يطلق الاستعمار على البنية المصريّة.

١. أهميّة نقد تاريخيّة جورج بالاندييه

بداية من المهم التذكير أنّ هذه الورقة ليست مراجعة تفصيليّة للتاريخ العالمي للاستعمار. في الواقع، إنّ نطاق اهتمامها ينحصر في «البنية الاجتماعيّة» كجزء من دراسة شاملة للثقافة السياسيّة المصريّة المتغيّرة منذ عام ١٨٥٨م، وحتى فترة ثورة عرابي. لقد ربط الاستعمار التاريخي مصر برباط ثنائيّة الدول المستعمرِة والشعوب المستعمرَة: «عندما يرتفع العلم البريطاني في السودان، فإنّنا لا نضمن مكانتنا في مصر فحسب، بل نتحمّل أيضًا مسؤوليّة الحضارة والحكم الرشيد في المناطق الشاسعة التي لا يمكننا تجاهلها. وطالما احتفظنا بالسودان، ويجب أن نحافظ عليه، فلا يمكننا ترك مصر، حتى لو لم تعد مصر هي الطريق إلى الهند»[٢]. يعني هذا بوضوح أنّ مصر مادّة خصبة للاستعمار، وفي الوقت نفسه، مناهضة له في الوعي القومي؛ إذا جاز لي التعبير، مصر هي الاستعمار الحميد والمحترم، والرغبة الأصيلة في التخلّص من ثقله. بهذا نكون أمام ثنائيّة جديدة استعمار حميد أمام استعمار ثقيل الظلّ، وإن كان الأوّل هو من أفلس مصر (فترة احتلال مملكة الحبشة؛ وفترة محمّد علي)، وجعلها رهينة لبريطانيا في عام ١٨٩٩م. بهذا جاء تصدير الورقة لكي أوضّح بتسلسل كيف أصبحت الطبقات الاجتماعيّة العليا، لا سيّما المثقّفون الجدد غير الرسميّين -في مقابل النخب الموالية للاستعمار- متوغّلة في المشهد لقيادة ما يسميه بالانديه «نقاط المقاومة»[٣]. كانت هذه النقاط حاضرة بوعي في النقابات الحضرية، وبين المثقّفين أنفسهم، وأعيان القرى، «الطبقات الثوريّة»، وسرعان

١. فانون، فرانز، معذبو الأرض، ص٨١.

2. Wu, Z., Colonized colonialists-alternative colonialism, Journal of Political Science Research, P. 5.

3. Balandier, G., The Colonial Situation: A Theoretical Approach, in: Stephen Howe, P.118.

ما مهّدت الطريق للثورة الاجتماعيّة العرابيّة في مصر، وفي العالم العربي، حتّى قطعت الإمبراطوريّتان الفرنسيّة والبريطانيّة الطريق عليها. ترتّب عليه وجود شكلين رئيسيين من الاستعمار في الغرب. الأوّل الاستعمار الكلاسيكي في الأميركيتين وأستراليا، الذي بدأ في القرن السابع عشر، حينئذ حقّق الأوروبيّون، فائضًا بسبب ما عانته من الأزمات الاجتماعيّة والاقتصادية. وبعد فترة من الهدوء في العقود الأولى من القرن التاسع عشر. حدث الشكل الثاني عندما استؤنف التوسّع الأوروبي إلى الخارج بشكل جدّي في أفريقيا وآسيا، لكن طبيعة هذا الشكل اللّاحق مختلف عن السابق، فقد تألّف الأوّل من تصدير فائض رأس المال، وليس تصدير فائض الأشخاص، وإنشاء الأبنية الاجتماعيّة التي تخدم الفرص الاقتصاديّة الجديدة[1].

وتستكمل الفكرة، متى عرفنا أنّ شمال أفريقيا شكّل موقعًا للمشروع الاستعماري الفرنسي الثاني لبناء الإمبراطوريّة. وهو المشروع الذي بدأ في عام ١٨٣٠م، ونجح الفرنسيّون في إنجازه. مع ذلك فإنّ المنطقة تفتخر بتاريخها من دون استبدال أبنيتها الاجتماعيّة والأهليّة بأصناف فرنسيّة. ويقتصر اهتمامي هنا بالاستعمار الأوروبي على شكله المصري، وما أحدثه من تغييرات عميقة في البنية الاجتماعيّة -وليس مجرّد دراسة الإنسان المعاصر كما زعم بالانديه- بينما ظلّت في مناطق أخرى على حالها تقريبًا في أواخر القرن التاسع عشر، مع استمرار عواقبه حتى يومنا هذا في خطابها الفكري. فضلاً عن ذلك نفت بحوث ودراسات الاستعمار بشكل قاطع وجود أي تطوّر في البنى التحتيّة الاجتماعيّة خلال الاوضاع الاستعماريّة[2]، على سبيل لمثال لا الحصر التجارب الاستعماريّة في دراسة كيربو عن الدول الآسيويّة، والتي لم تقس بعمق التأثيرات

1. Ekeh, P, «COLONIALISM AND SOCIAL STRUCTURE»: An Inaugural Lecture delivered at the University of Ibadan on Thursday, P.3.

2. Kerbo, 2005.

المختلفة للاستعمار باعتباره «متغيّرًا متدخّلًا» في بنيتها، ودون معالجة في المستقبل. لهذا تتعرّض هذه الورقة للبعد السوسيولوجي بطريقة مبسطة عن الحدود الزمنيّة للاستعمار؛ لأن المتغيّرات مثل «عدد سنوات الاستعمار» أو «الوقت الذي يقضيه تحت الحكم الاستعماري» بارزة جدًّا في الأبحاث الحديثة[1]، ولكن أسعى إلى تطوير مجموعة بيانات جديدة لقياس البنية الاجتماعيّة المصريّة؛ إذ كان له تأثير أكبر أم أقلّ، في وقت لم تعد فيه دراسة الاستعمار قضيّة سياسيّة، إنّما قضيّة أكاديميّة.

لا بدّ من الإشارة هنا إلى حقيقة أنّ الاستعمار الأوروبي لمصر يؤشّر ضمنًا إلى ثلاثة جوانب متميّزة للواقع الاجتماعي في القرنين التاسع عشر والعشرين؛ أوّلًا: إلى الوضع الاستعماري غير الرسمي بوصفه إشارة إلى أنشطة تهدف إلى تغيير البنية الاجتماعيّة. ثانيًا: إلى استخدام اللفظ أيضًا للدلالة على ردود أفعال أولئك الذين تعرّضوا له من خلال أنماط الحياة، العادات، التقاليد، الأعراف، الاستهلاك، القيم والثقافات العامّة. وثالثًا: إلى من الظروف المعاكسة التي أنتجتها الإمبراطوريّة البريطانيّة في البنية المصريّة، على الرغم من أنّ هذه البنية الاجتماعيّة كانت مراكز حيّة لإنتاج المعرفة والابتكار الاجتماعي، وتجارب العلاقات الاجتماعيّة والتعايش السلمي.

وفي ضوء ما سبق نطرح على أنفسنا السؤال التالي: ما واقع أنماط البنى الاجتماعيّة المصريّة غير الرسميّة، وموقف أعضائها الملموسة بين الحين والآخر قبل مجيء الاستعمار الأوروبي الرسمي؟ وللإجابة، ورغبة في قراءة هذا المشهد جرى ترتيب بحثنا وفقًا للعناوين التالية: يعتني القسم الأوّل بمفاهيم البنية الاجتماعيّة بوصفها «المقدّمات العامّة»، ويضمّ القسم الثاني المدخل السوسيولوجي والمقدّمات الخاصّة عند جورج بالانديه، وإطار تفسيري عبر مفهومه الخاصّ «الوضع الاستعماري» الحاكم للتوتّرات الداخليّة بين المجتمعات الاستعماريّة والمستعمَرة بطريقة متفاوتة في النجاح حتى نصل إلى أوضاع البنية الاجتماعيّة المصريّة رمز الإبداع، وما بعده في المواجهة وردّ الفعل

1. Ziltener, P., & Kunzler, D., Impacts of Colonialism: A Research Survey. Journal of World-Systems Research.

للمصريّين أمام مشهد البنية الغربيّة والتقليديّة، حتّى تقرّر مصيرها. ويعبرّ القسم الرابع عن مواقف وأوضاع وحدات من البنية الاجتماعيّة المصريّة إزاء الوضع الاستعماري، وأختم ببعض النتائج والتوصيات.

يمكن تعريف المنهج بأنّه الطريقة أو العمليّة المستمرّة من قبل العلماء لجمع المعرفة حول العالم ومن حولهم لأجل البحث عن الحقيقة الموضوعيّة، كما يشير إلى عمليّة أو تقنيّات لجمع المعلومات وتحليل البيانات في العلوم الاجتماعيّة. أمّا من المنظور الفلسفي فهو طريقة لرؤية العالم وشكله، حتى نزيل الغموض عن الشكل والواقع. وهناك أنواع مختلفة من المناهج والطرق مثل الوضعيّة والبنيويّة ومابعد البنيويّة والديالكتيك سواء الهيغلي أو الماركسي. وتعطي كلّ طريقة أو منهج الأولويّة أثناء التحليل، فمثلاً مابعد البنيويّة أو الحداثة تعطي أولويّة إلاّ أنّ التحليلات لا تخلو من القيمة -على نقيض الوضعيّة- وذات صلة بالسلطة أو الحقبة التاريخيّة سيِّدة القرار في شرح الاستجابات الاجتماعيّة والسياسيّة للمصريّين.

في السرد مابعد الحداثي، أو مابعد البنيوي يصير منهج البحث بمثابة تشكيل دور مصر باعتبارها «المُستَعمِر المُستَعمَر» **(Colonized Colonizer)**. وهذا يؤدّي حتمًا إلى تحوّل في الحقائق التاريخيّة، ويعزّز دور مقاومة البنية الأهليّة المصريّة؛ لذا فإنّ الغاية من هذا المسعى هي تحقيق نوع من السجال ما بين مدخل مابعد الحداثة (الأطراف أي الاستعمار أو الهوامش مثل مصر) الذي يبرّر الاستعمار كرمز لحضارة العقل في مقابل الأطراف بما ترمز إليه من عوامل التخلّف والركود. وذلك يؤكّد ما ذكره جورج بالانديه عام ١٩٥١ في كتابه المعنوَن «الوضع الاستعماري» **(Colonial Situation)**، باعتباره دعوة لتحليل الاستعمار عبر مفاهيم أو بنية السكان الأصليّين، وتصنيفات الفئات الاجتماعيّة، والذي كان أكثر انبهارًا بإمكانيّات تحديث هؤلاء السكان عبر حركات التحرير نفسها، دون الاقتلاع من الجذور، تحديدًا الطبقات الاجتماعيّة العليا المختلفة من النقابات الحضريّة، وأذرعها من المثقّفين الجدد، من داخل أو خارج أعيان القرى في مصر، والتي اندفعت نحو المقاومة اليوميّة. أعطت المقاومة الأولويّة للجانب السياسي.

٢. مفاهيم البنية الاجتماعيّة: المقدّمات العامّة

إنّ أيّ تفسير مناسب للبنية الاجتماعيّة لا بدّ وأن يأخذ في الحسبان استقرار الحياة الاجتماعيّة؛ لأنّها مجال للتفاوض لا يُعاد تعريفها من خلال **ثنائيّة** الاستقرار الاجتماعي والتغيير، بمعنى أنّ الحياة الاجتماعيّة يحكمها التجديد، والفعل البشري الجزئي والكلّي، وكلاهما مترابطان. تقيد البنية الاجتماعيّة الفرد من قبل المؤسّسات سابقة الوجود، والأوضاع المفروضة لاحقًا. تعرّف البنية الاجتماعيّة عند ليفي شتراوس، بأنّها كلّ التشكيلات الاجتماعيّة الناتجة عن المقاومة بوصفها نماذج مثالية للوجود الاجتماعي. وأعني بالتشكيلات النماذج الاجتماعيّة المتقنة من التنظيمات **(Institutions)**. وما يميّز دراسة بنية الاستعمار هو أنّه يتجاوز الأنشطة الخاصّة للأفراد في المواقف الاجتماعيّة؛ وينكر ما يقوم به الأفراد من أعمال إبداعيّة مع **البنى** الاجتماعيّة الأخرى، والتي لا يمكن التنبّؤ بتحرّكاتها.

لقد تصوّر بالانديه **(Balandier)** هذه البنية مجموعة من العلاقات بين المستعمِر والمستعمَر، وبين عناصر الثقافة الأوروبيّة والثقافة الأصليّة، فهي «قوّة تعمل من حيث شموليّتها»[1]. بمعنى أنّه لا بدّ من فهم الظروف الاجتماعيّة في حينها، على هذا الأساس، تجسّد هذه البنية تشكيلاً من حيث الأوضاع المشتركة، ويمكن التنبّؤ بها، على مستوى الرؤية الاجتماعيّة الجديدة، والأجندات السياسيّة، والقوى الاجتماعيّة آنذاك. لا تساهم التصنيفات الاجتماعيّة للمستعمر والاستعمار فقط في البنية الاجتماعيّة، ولكن في تعريف الأشخاص في السلطة الاستعماريّة أنفسهم كأفراد فريدين خارج الفئات الاجتماعيّة. وينظرون إلى أعضاء البنى الأخرى ممثّلين غير مساوين لهم، وتبرز الهويّات الشخصيّة أكثر من الهويات الاجتماعيّة[2].

إنّ العديد من النظريات السوسيولوجية المعاصرة تفترض أنّ مخططات البنية الاجتماعيّة مستمدّة من الطبيعة، وتوزيع الموارد في العالم اليومي، ونتيجة متطورة للتفاعل الاجتماعي. ويعتقد **جيدنز أن** البنية عبارة عن مزيج من القواعد والموارد التي

1. Balandier, G., The Colonial Situation: A Theoretical Approach, in: Stephen Howe, P.35.

2. Howard, J., A Social Cognitive Conception of Social Structure, Social Psychology Quarterly, P.212.

تعيد إنتاج الأنظمة الاجتماعيّة. والقواعد هي «افتراضية» (أي معرفية)؛ لأنها لا توجد إلّا كـ«آثار ذاكرة»، والموارد هي كل ما يعمل كمصدر للقوة في التفاعل الاجتماعي. وعلى هذا فالبنية هي عمليّة، وليست حالة مستقرّة. وفي عمله الأحدث، يؤكّد جيدنز[١] بشكل أقوى على قوة المؤسّسات الاجتماعيّة المعاصرة، معتبراً أنها «تختلف عن جميع أشكال النظام الاجتماعي السابق. ولكن كيف تتحول البنية المستقرة لتكون ثوريّة ومدنيّة؟ يستلزم المجتمع تعدّد الأبنية، والتحول الاجتماعي، وتنشيط الفاعل بحيث يستطيع التعامل مع ذخيرة واسعة من المخططات (أي الإجراءات والمعرفة المشتركة ثقافيًّا). وبعبارة أخرى، البنية هي إنجاز روتيني يتمّ توليده في التفاعل اليومي[٢]. الغاية عند جيدنز تصحيح وجهات النظر الأكاديميّة التقليديّة ونقدها، حيث إنّ المستعمرات (مصر) تفتقر إلى الفاعل الهادف (الطبقات)، وليس لديها ميول المقاومة، وأنّ الغرب مصدر القوة. ويمكن الاستفادة من ثنائيّة جيدنز في تعريف التشكيلات أو التنظيمات الاجتماعيّة من الطبقات، والنخب الوطنيّة وغيرها، وثمرتها في آن واحد. ويمكن أن تعمل مثل هذه الممارسات اليوميّة للطبقات الاجتماعيّة المصريّة إبان الاستعمار كقوّة خفيّة، حيث تمارس ما يسمّيه بورديو **(Bourdieu)** «العنف الرمزيّ»، أي تلك الأشكال من الالتزام والإكراه التي لا يتمّ الاعتراف بها أبدًا على أنها إكراه، ولكن يتمّ تجربتها على أنها نمط من الولاء الشخصي أو احترام للذات. وبمرور الوقت في هذه الحقبة، تمثّل البنية المصريّة «أنماطًا من الخبرة اليوميّة لبعض الطبقات الاجتماعيّة المصريّة مثل المثقّفين الجدد، وليس الكلّ، في تنفيذ أوضاع المقاومة ضدّ أيّ تدخل خارجي -وكانت مصر في وضع إمبراطوراي- من خلال ما تملكه من الموارد (المعرفيّة) والأنشطة اليوميّة (الأهلية أو غير الرسميّة والرسميّة). ولهذا وصلت البنى الاجتماعيّة المصريّة اليوميّة، إلى درجة من النضج في جناحين آنذاك: الجناح الاقتصادي تمثّله طبقة ملّاك الأراضي الزراعيّة،

١. زايد، أحمد، آفاق جديدة في نظريّة علم الاجتماع: نظريّة تشكّل البنية.

2. Howard, J., A Social Cognitive Conception of Social Structure, P.217.

أي الأعيان، وهم أصلاً من المثقّفين الجدد، ثمّ هناك الجناح الفكري الرافد من المثقّفين الجدد، وخرج من الأخير فرعان؛ هما المدني والعسكري، واللذان التحما بالطبقة الأولى من خلال التعلّم المدني والبعثات[١].

٣. أنماط البنى الاجتماعيّة المصريّة: المقدّمات الخاصّة

تنحو رواية جورج بالانديه عن «الوضع الاستعماري» منحى يرى أنّ المجتمع الاستعماري في مواجهة بين النظامين التقليدي والإلزامِيّ، ولكن هذه المواجهة آيلة إلى أحد وجهين: إمّا إلى ولادة مجتمع جديد، أو مواجهة بني سابقة[٢]. ببساطة، لا يمكن النظر إلى الوضع الاستعماري من وجهة نظر طرفين، بل من وجهة نظر كلية لعموم المجتمع. بذلك نفكك الزعم الأساسي للمجتمع الاستعماري، وهي هيمنة المستعمِر على الشعب المستعمَر، وتسمّى عند بالانديه بـ«عدم الأصالة»[٣]. يؤمن بالانديه بأنّ السياسة لم تعد مقولة، بل هي صفة لكلّ التشكيلات الاجتماعيّة، وبمجرّد خروجها في الواقع تصير حيّزًا سياسيًّا[٤].

هذا المعنى يمكّنني من ذكر التشكيلات البارزة غير المكتشفَة في عالم ما قبل الاستعمار -المقدّمات الخاصّة- ويتطلّب تجميعها ثلاث أنماط خاصّة: البنى الاستعماريّة الحاضنة، والبني المستعمَرة التقليديّة، والبني المستعمَرة الوليدة (المقاومة)، وكأن الاستعمار بمثابة عمل من أعمال الجراحة الاجتماعيّة.

تؤشّر البنية الأولى إلى أوروبا، والتي حرصت على تثبيت العادات الغربيّة الثقافيّة في عالم القيم والإيديولوجيا، والتي أوشكت على التخلّص منها من المخزون النفسي الكبير من الكراهية والحقد والنظرة الدونية والاحتقار التي يحملها الانسان الغربي تجاه

---

١. أنيس، محمّد، الحركة الوطنيّة في مواجهة الاستعمار الأوروبي، ص٢٠.

2. Balandier, G., The Colonial Situation: A Theoretical Approach, in: Stephen Howe, P.179.

3. IBID, P.25.

٤. بالانديه، جورج، الأنثروبولوجيا السياسيّة، ص٨.

غيره من الأجناس الأخرى، وهو المخزون الذي يدفعه إلى ارتكاب الجرائم والمجازر ضدّ الإنسانيّة دون شعور بالذنب أو تأنيب ضمير بغرض جمع الثروات ونهب خيرات الشعوب باسم نشر رسالة الحضارة، والحرّيّة والديمقراطيّة[١]. وتتطبع هذه البنية بالأخلاق ومنجزات العلم التجريبي، وتنقلها إلى ثورة صناعية، طمعًا بمصادر الطاقة والخامات والمواد الأولية الموجود في العالم الشرقي، التي لم تكن تمتلكها إلا بنسب قليلة لا تغطي كل احتياجاتها ولو على حساب الآخرين، وتجاهل مصالحهم، ومصادرة حقوقهم. ولعل براعة هذه البنية في فرض إثمها على أنه شرف، وإبراز شهواتها وكأنها قوانين نزيهة[٢].

فضلاً عن فرض نفسها بالقوّة؛ تجهل النواميس الاجتماعيّة لحياة البشر، كما جاء صراحة في أشهر أعلام هذه البنية الاستعماريّة، وهو القسيس دي توفيل في قوله عن جهل الاستعمار بمضمون العادات والتقاليد والأعراف الخاصة بـ«الأهالي»، لم تكن لنا أيّ أفكار واضحة عن مختلف القوميّات التي تسكن المنطقة، وقد كنّا نجهل أبسط المعاني لأيّ كلمة من اللّغة التي يتحدّثونها وحتى جغرافية البلد نفسه؛ موارده، مجاريه المائيّة، مدنه، والخصائص المناخيّة... وعندما نفهم هذه الخلفيّات وممارسات العرب عندئذ يصبح المجال متاحًا لممارسة أساليب التحكّم ولفّ البلاد من حولنا»[٣]. وبرغم أنّ الحضور الملموس لهذه البنية لم يكن قائمًا، ولكن تظلّ مكتومة حتّى تأتي الظروف لتخرجها، أي أنّه فاعل دون فعل، تأثير دون أثر.

ويطلق على تشكيل النمط الثاني البنية التقليديّة أو «جيوب التشكيلات المحلّيّة»؛ لأنّ التقاليد تشكل جوهر وجودهما، بشكل تقريبي، تعتبر جميع الأبنية والمؤسّسات الاجتماعيّة ما قبل الاستعمار تقليديّة، وربمّا كان هؤلاء شيوخًا أو أعضاء في العائلة

---

١. فياض، محمود؛ الدين حسام، الأنثروبولوجيا بين الأكاديمية والأداتين: (دراسة تحليليّة - نقديّة لطبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والاستعمار.

2. Cooper, F, Colonialism in Question: Theory, Knowledge, History, Berkeley: University of California Press.

٣. العربي، بحسون، بين التاريخ والأنثروبولوجيا، ص١٦٧.

المالكة، أو من النبلاء. في ضوء مقولة **بالانديه**، والذي يؤشّر إلى التعايش بين النظام التقليدي القديم (مرتكز على المقدس والشخصي) والنظام البيروقراطي الجديد استمرار الثنائيّة الغربيّة (البنية والفاعل) عند جيدنز، وكلاهما مقبول كنظامين شرعيين بحكم الواقع، وتعارضهما يظلّ قائمًا، وولاؤهما هو محاباة للآخر. ويعاود المصريّون بلعبة مزدوجة، بالرجوع لهذا أو ذاك حسب المصالح والأموال، ويتعايشان بصورة مؤقتة رغم محاولة الاستعمار الجديد عقلنة القديم، وإخفاءه بحجّة مشاريع التحديث الاستعماريّة[١]. وتمثّل هذه البنية تحولّات لمؤسّسات السكّان ما قبل الاستعمار، وتعمل ضمن المعاني والرموز الجديدة للاستعمار وفي الإطار المجتمعي، لأجل توسيع النظام والإطار الاجتماعي والثقافي الجديد. لقد تحطّم النظام الأخلاقي والاجتماعي الذي كان يغطّي في السابق مؤسّساتها من ناحية القوى الاجتماعيّة للاستعمار، مع ذلك تبحث دومًا عن مرتكزات جديدة في بيئة الاستعمار المتغيّرة. وبعبارة أخرى، فقد ظلّوا متقزّمين على مستوى روابطهم مع العناصر الأخرى، فقدوا حقوقهم، إمّا بشكل كامل أو بنسب متضائلة، في حين ظلّت واجباتهم راكدة. وكان شعار الاستعمار «جنّدوا الطبقة الحاكمة لقضيّتنا».

وبعيدًا عن نظم التدرّج الاجتماعي، تتشكّل البنية الثالثة الوليدة بنية الجذور قيد التكوين، من الممارسات اليوميّة السابقة، الأصلية والمقاومة، وهي شغلي الشاغل، خارج الإطار الضيّق للنظامين السابقين اللّذان حكما الوضع الاستعماري، وضمن الفئات الاجتماعيّة. وقد يكون ردّ فعل البنية الاستعماريّة تجاهل بكبح تكوينها وجماحها؛ بخلق جبهة معارضة تحدّ من التنافس مع تكوين البنية التقليديّة، والمعارك مع الاستعمار. لقد اكتسبوا عالم حياتهم **(life-world)** الخاصّ -وهو ذروة الإنجاز البشري عند الغرب-، والاستعارة من مصطلح هابرماس عن تأسيس معالم الوجود الاجتماعي الفريد[٢].

لقد وُلدوا في الفضاء المكاني والزماني نفسه للاستعمار، ونشأوا مع الاستعمار

١. الأنثروبولوجيا السياسيّة، م. س، ص٢٠٦.

2. Gagné, N., The Study of Colonial Situations: The Emergence of a New General Approach, Reviews in Anthropology, P.43.

تحت مسمّيات: «أجيال الاستعمار الذاتية»؛ العناصر غير الرسميّة للاستعمار. وغالبًا ما يتمّ تشويههم عن عمد بالتقاليد أو الحداثة، لمنحها مظهر التقليد المتطرف أو الحداثة المفرطة[1]، بيد أنها تستمدّ وجودها في العمل على الأخلاق المجتمعية، والارتباط بالمجال الخاص، والإدراك الاجتماعي -قيد التكوين-، بدرجة خطيرة من المقاومة، وما تمّت مقاومته في فترات التجارب الاستعماريّة السابقة للمصريّين. فهي عينة -وليس كل ما في بنيتنا المصريّة- أنجبت المعرفة من خلال التفاعل النمطي والعادي، والمقيدة بسياق، **ومرتجلة باستمرار** بأدوار جديدة وطنيّة، وأداة اتصال بين الفئات والجماعات الاجتماعيّة الجديدة. وأصبح التفاوض أو الاتّصال أو الصراع مع الوضع الاستعماري بمثابة جزء من الذخيرة الثقافيّة والاجتماعيّة المشتركة[2].

٤. صورة البنية الاجتماعيّة المصريّة قبيل الوضع الاستعماري

ولكي نسطّر تاريخًا لهذه البنية المصريّة عن كثب، اقترُح اِتّجاهان لها أحدهما غامق، والآخر فاتح في ضوء رواية بالانديه الخاصّة، الأوّل يسطّر لفكرة الآخر الاستعماري ليعمّق إيقاظ قضية الوعي، في حين يسطّر الثاني لمدى الوفاء بمهمّتها الحضاريّة، ويروي علاقتها مع المستعمر بوصفها الطبقة المثقّفة المحلّيّة -الطبقات الاجتماعيّة- التي تستمدّ وجودها من مواقفها اليوميّة. على سبيل المثال النقابات الحضرية، أعيان القرى، المثقّفون الجدد، بوصفهم الأجنحة المشكلة للبنية المصريّة، وكلا الاتّجاهين متقاطعين.

بناء على هذا الإدراك أعرض بعض وحدات البنية المصريّة السابقة، أوّلها المثقّفون الجدد، مجازًا، التشكيلات الاجتماعيّة المنتصرة، حتى تتّسع رقعة الرواية التي بين أيدينا. والسؤال لماذا؟ لأن كثيراً من الدراسات لم تهتم بطريقة عمل النظام الاجتماعي

1. Powell, Eve Troutt, A Different Shade of Colonialism Egypt, Great Britain, and the Mastery of the Sudan, P.111.

2. Mann, G., Anti-Colonialism and Social Science: Georges Balandier, Madeira Keita, and «the Colonial Situation» in French Africa, P.110.

الاستعماري للحدّ من التحرّك في جوانب الحياة المصريّة، بل تجاهلت مشكلة الاغتراب الصعبة (بسبب القمع الاستعماري) و«الوعي الطبقي» و«الوعي الزائف» تمامًا عند منعطف القرن التاسع عشر في لحظة من تحديث مصر، وهي فضيلة قامت على يد المثقّفين الجدد من خلال الصحافة الوطنيّة وما طرحته من قضايا الحرّيّة والديمقراطيّة، وحذّروا من تصاعد النفوذ الأجنبي، وخطورته على الاستقلال الوطني. وشرعت في عمليّة التنوير من خلال المؤسّسات الثقافيّة المختلفة لترسّخ لمبادئ التحديث والحرّيّة والدستور والحياة النيابيّة. وكان العبء الأكبر عليهم في مواجهة أمور فرضها الوضع الاستعماري أثناء صعودها مثل أقساط الديون، والأعمال الماليّة المريبة للاستعمار الإنجليزي في شؤون الشركات والبنوك ومحلّات القمار والفنادق والرهن وغير ذلك. يضاف إلى هذه، الامتيازات الأجنبيّة للرعايا الأجانب.

من هنا برز المثقّفون الجدد في قيادة الحركة الوطنيّة خاصّة الجناح العسكري، والذي خرج من بين صفوفه أحمد عرابي[١]، وتسمّى هذه الفئة «الجناح العسكري للمثقّفين المصريّين» الذين حاولوا تجديد بلادهم خلال فترات بدا فيها الوضع الاستعماري هو الإجابة الوحيدة. أعطي نموذجًا بارزًا من الطبقات الاجتماعيّة العليا المثقّفة تحديدًا «نمط البنية الاجتماعيّة المحلّيّة»، وهو رفاعة الطهطاوي، رائد النهضة الثقافيّة العربيّة، والذي عاش، وعمل خلال فترة تاريخيّة سعيدة، خفّت التوتّرات الدينيّة بين الإسلام والمسيحيّة، بين الشرق والغرب. كانت مصر لا تزال في وضع مستقلّ نسبيًّا، وكان يعتقد أنّ تقدّم أوروبا كان نتيجة للوطنيّة، مثل حبّ الفرنسيّين لوطنهم الأم. وبالتالي كانت الوطنيّة وسيلة لسدّ الفجوة الحضاريّة بين العرب والأوروبيّين. في باريس، يشرح الطهطاوي فكرة حبّ الوطن والوطنيّة للبلاد، وفي خمسينات القرن التاسع عشر، ساعد الطهطاوي في وضع الأساس لنوع أدبي جديد وهو الشعر الوطني، وأعرب عن اعتقاده بأنّ حبّ الوطن واجب على كلّ الناس[٢].

١. زغلول، آمال سعد، المثقّفون المصريّون ودورهم في ثورة ١٩١٩م، ص٣٣.

2. Wu, Z., Colonized colonialists-alternative colonialism, Journal of Political Science Research, P. 9.

في كتابه عن المجتمع المصري «كتاب مناهج الألباب المصريّة في مباهج الآداب العصرية»، زعم أن حبّ الوطن بعد حب الله، وهو ما أصبح لازمة متكرّرة في إحدى القصائد: «من الطبيعي أن يحب المتحضّرون، بعد الله، وطنهم، هبة من الواهب، سبحان الواهب الكريم». وبالنسبة له، فإنّ الوطنيّة هي جوهر الشخص، ومن أجل تنمية الوعي العام، من الضروري إصلاح التعليم التقليدي... لذلك، فإنّ ترويج وتعزيز الوعي الوطني يمكن أن يحقّق نهضة الحضارة الإسلاميّة خارج الحضارة الغربية. والوطنيّة لا يقصد بها كل الناطقين بالعربيّة، بل أولئك الذين عاشوا على أرض مصر؛ مكانًا للتميّز والاستمراريّة التاريخيّة؛ ولذلك أطلق عليه لقب «أبو القوميّة المصريّة». أثّرت الوطنيّة على مجموعة من المثقّفين من طلّابه في مدرسة الترجمة، وغيرهم من الأجيال الجديدة، ودخلت مصر تدريجيًّا «عصر الصحوة» للقوميّة الحديثة[١].

وذكر بوتاس ميتشل في كتابه «استعمار مصر» ما يثبت تحرّكها، ويؤرّخ مدنيّتها لا جمودها، حول كيفيّة مواجهة مختلف الزوّار المصريّين للمعارض العالميّة في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر لعروض الشوارع، والعادات المصريّة. كان نظام التمثيلات في هذه المعارض، وهو رؤية شاملة لنفس النوع من الاستشراق الأدبي الذي وصفه إدوارد سعيد جيّدًا، مروعًا ومثيراً للاشمئزاز لدى العديد من الزوّار المصريين بقدرته المتناقضة على غمر المشاهد في «مشهد» مصري، بينما تمكّن المشاهد نفسه من الوقوف بعيدًا. يزعم ميتشل أن المصريين قد مرّوا بعملية مماثلة من النظام في بلدهم بدءًا من أوائل القرن التاسع عشر مع حكم محمّد علي. ولتعزيز طموحه في جعل مصر ندًا للإمبراطورية العثمانية (التي حكم باسمها)، وفرنسا، وبريطانيا العظمى، تعهد محمّد علي بسلسلة من الإصلاحات الاقتصاديّة والاجتماعيّة التي أدت بدورها إلى خلق طبقة جديدة من البيروقراطيين المصريين، الذين أظهر العديد منهم -في الأدبيات التي يحلّلها ميتشل- التزامًا عميقًا بإعادة هيكلة مصر مثل ذلك الذي أظهره اللورد كرومر[٢].

---

١. الطهطاوي، رفاعة، كتاب مناهج الألباب المصريّة في مباهج الآداب العصرية.

2. Powell, Eve Troutt, A Different Shade of Colonialism Egypt, Great Britain, and the Mastery of the Sudan, P.11.

ولا يمكن اغفال دور المثقفين في توجيه بنية **النقابات الحضرية** في فترة البناء المصري، لتعطينا صورة واضحة عن أسلوب العمل فيها، ومستوى تنظيمها، ومدى ما حقّقته من نجاح، ولعلّ فيما وصلنا من أنباء عن **اعتصام الخيّاطين** في (٤ من نوفمبر عام ١٩٠١م) ما يلقي الضوء على أسلوب العمل النقابي في تلك الحقبة من الزمان، فقد احتشد الخيّاطون في أحد المقاهي، وانضم إليهم بعض أعضاء جمعية لفّافي السجاير، والكثير من أعضاء الجمعيات العمّالية الأخرى، فبلغ عددهم ما يربو على ١٥٠٠ عامل، ورأس الاجتماع دكتور بستس رئيس جمعية الخيّاطين والخواجا نقولا ديانو سكرتيرها، وأحمد أفندي على أمين الصندوق، وتحدّث رئيس جمعية لفّافي السجاير في هذا الاجتماع عن واجبات العمّال نحو صاحب العمل، وحقوق العامل طرف صاحب العمل، وطالب بأن يقتسم العمّال الأرباح مع أصحاب الأعمال مراعاة للعدالة والذمّة. وانفضّ الاجتماع بعد أن أُلقيت عدة خطب، ثم عاد العمّال إلى التجمّع مرة أخرى في المساء، فساروا في مظاهرة منظّمة تتقدّمها فرق الموسيقى البلدية وعلم الجمعيّة الذي كان يحمل اسمها مكتوبًا بالعربيّة والإيطاليّة واليونانيّة والعبريّة والأرمنيّة[١].

على صعيد آخر من تطوّر البنية الاجتماعيّة الفكرية المصريّة، شارك المثقفون الوطنيون الجدد في صنع الحداثة الكونية ضد الخمول العرقي للاستعمار الأوروبي في تلك الفترة، قبل اقتحام الحضارة الحديثة، وانطلق جزء أساسي من عمل الأنثروبولوجيّين في الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة المصريّة ١٨٧٥م متوجّه لاكتشاف البلاد القريبة، تحديدًا السودان، كأحد مطامح مصر الإمبرياليّة (في محاكاة منّي للاستعمار) في أفريقيا. ولكن عندما خبتت طموحات مصر، عمدت النخبة المثقّفة إلى فضح الاستعمار بإنشاء المتحف الإثنوجرافي الذي كشف عن كثير من المقتنيات المسروقة، وأسماء الشخصيّات الذين جلبوها وظروف الحصول عليها، في مقابل الحفاظ على السمات المصريّة[٢].

ومن بين الهدايا المجّانية للمثقفين الجدد، توسيع البنية الفكريّة للتعليم، لانتزاع

١. حامد، رؤوف عباس، الحركات العمّاليّة في مصر، ص٥.

٢. الشاكري، أمنية، المعمل الاجتماعي الكبير: موضوعات المعرفة في مصر المستعمرة وما بعد الكولونيالية، ص٥٩.

المكانة **(Status Usurpation)**، ولم يكن المهنيون والمثقّفون مثل مصطفى كامل وطلعت حرب يعارضون تعليم النساء في حدّ ذاته، أما الذكور من الطبقة المتوسطة الدنيا الجديدة، فقد واجهوا رغبات متناقضة؛ ولذلك تبنّوا استراتيجية تسوية. من ناحية، أرادوا أن تشارك زوجاتهم في ثقافتهم وتعليمهم الأوروبيين. ومن ناحية أخرى، واجهوا سوق عمل ضيقة ولم يريدوا منافسة على الوظائف من أقاربهم من الإناث. إن حقيقة أن نساء الطبقة المتوسطة العليا الجديدة وأقاربهن من الذكور أدركوا ضرورة تبنّي الإناث من هذه الطبقة لأنماط الحياة الغربيّة مثل التعليم الكامل. كانت أسر الطبقة المتوسطة العليا الجديدة تتخلّى عن أنماط الحياة التركية التي كانت تبنّت الأساليب الأوروبيّة.

وفي سياق الاحتلال الاستعماري البريطاني وعلاقة التبعية التي حُجِزَت لها اقتصادات جنوب البحر الأبيض المتوسط، كان من الطبيعي أن تنبع المظاهر الثقافيّة للمكانة العالية من لندن وباريس وليس من إسطنبول. ولكن عملية انتزاع المكانة وفقًا للتعبير عند ماكس فيبر بين الطبقة المتوسطة العليا الجديدة قوبلت بمقاومة جزئية من جانب البرجوازيّة الصغيرة الجديدة التي وجدت أنه من الأنسب لوضعها الاقتصادي أن تنتزع المكانة فيما يتّصل بأغلب العلاقات بين الذكور والإناث من الطبقة التركية الشركسية القديمة على الرغم من تبنيها العادات الأوروبية. وبالنسبة للمهنيين والموظفين الذين رأوا أنفسهم في وضع صاعد، فإن الحاجة إلى تقليد منافسيهم الأوروبيين لا بدّ وأن كانت مزعجة. وكان الاستيلاء على رموز المكانة الاجتماعيّة مثل عزل النساء عن النخبة التركية المصريّة إحدى الطرق لتأكيد هويتهم الثقافيّة في موقف حيث كانوا في خطر الانعزال عن وطنهم المصريّ[1]. هذا فيض من قليل عمّا استشعرته من دور الطبقات الاجتماعيّة العليا المصريّة في توجيه الوعي السياسي المصري كأحد النماذج الاجتماعيّة المتقنة في البنية الاجتماعيّة المصريّة المميّزة، فأين الادّعاء بالجمود!

1. Cole, J., Feminism, Class, and Islam in Turn-of-the-Century Egypt, International Journal of Middle East Studies, P.388.

٥. استنتاجات

استنادًا إلى ما مرَّ معنا من عروض تحليليّة ونقديّة لآراء بالانديه يمكن استنتاج ما يلي:

أوّلًا: نستطيع القول إنّ خاتمة المقال تعكس بدايته، فقد كان الهدف من الحديث عن الوضع الاستعماري توضيح الظروف التي عاشتها مصر بوصفها نقاط المقاومة القادمة من خلال أنماط من البنى الاجتماعيّة المحلّيّة المهيّأة؛ المساهمة في فهم جانب من جوانب الإنسانيّة، ولفتت الانتباه إلى الحقيقة أنّنا نعيش ونعمل في بيئة شكّلتها القوى الاجتماعيّة الاستعماريّة غير الممدوحة في حدّ ذاتها، ومن المهم أنّ نفهم هذه البيئة المعقّدة. ونتطرّق إلى جوهر السؤال الذي لم يُطرح كثيرًا: «**ما الذي يجعل الاستعمار مميّزًا على أيّ حال رغم هذا الحضور؟**». لقد فرض الاستعمار، على الشعوب الخاضعة وضعًا خاصًّا للغاية، فلم تحدّد ردود أفعال الشعوب «التابعة». فرض الوضع الاستعماري مشاكل على الشعب المحتلّ، هذه المشاكل استرعت انتباه عالم الاجتماع عن أهميّة المشكلة الاستعماريّة في مجملها. وبناء عليه، حدّد هذا الوضع المواقف الملموسة الحقيقيّة -في تاريخ الشعب المصري في هذه الحقبة التاريخيّة المختارة- بين الحين والآخر. بعيدًا عن أصول المجتمع العرقيّة أو السلاليّة أو الدينيّة. وتنصرف هذه المواقف إلى فهم الظروف كما هي، وليس التضحية بحقائق الوضع الاستعماري، والذي يعدّ بمثابة المرجعيّة التي استرشدت بها من وجهات نظر (المثقّفين الجدد في كلّ حقل ذكرته أعلاه). وبهذه الطريقة امتلكت إطارًا مرجعيًّا أوّليًا يمكن تعميمه على البنية ككل.

ثانيًا: بيَّنَت الدراسة أنّ الطبقات الاجتماعيّة العليا برمزيتها؛ لا يأخذ المثقّفون الجدد أماكنهم في مخطّط الأشياء كما هم فحسب في مثل هذه الظروف الجامدة، بل أنتجوا ديناميكيّة تسهل التغيير الاجتماعي. لا يشير «التغيير» إلى تعديلات داخليّة داخل نظام البنية، بل إلى تحوّل كلي للمجتمع، وظواهره التي ذكرناها في المقدمات الخاصّة.

أوضحت هذه المقدّمات الخاصّة كيف أنّ الاستعمار على أرض الواقع هو مجتمع متنوّع، ومتغيّر داخليًّا لا يمكن فهمه بشكل صحيح دون النظر إلى السياق بأكمله. وبهذا نبتعد عن التحليل الضيّق الذي يقوم على السبب والنتيجة، فهل يعني هذا حضورًا أوروبيًّا في مصر، أم أنّه يعني انتشارًا لنظام سياسي ينقش مفهومًا جديدًا للفضاء الأوروبي، وأشكالاً جديدة للشخصيّة، ووسيلة جديدة لتصنيع تجربة الواقع؟ لقد فسّر الوضع الاستعماري **الجمل السلبيّة الغربيّة**، مثل إعادة التنظيم المكثّف للجيش، وتصنيف السكان في الإحصاء السكّاني، وتوسيع الشوارع في المدن المصريّة، والاعتماد على «نموذج السجن «بنوبتيكن» بتعبير فوكو كنموذج معماري للمدارس والمدن المصريّة. وعلى هذا أطرح سؤالاً من الذي يقوم بضبط عمليّة الوضع الاستعماري هنا؟ ولماذا نتجاهل حقيقة مفادها أن مصر جزء كبير من مشروع إنشاء إمبراطوريّتها الخاصّة، وهي بلد كانت موضوعًا وذاتًا في الوقت نفسه؟

ثالثًا: عملت الدراسة على تقديم معنى جديد للطبقات لا يتعلّق فقط بالطريقة التي تتحدّث بها، أو تلبس بها، أو تجهز بها منزلك؛ ولا يتعلّق الأمر فقط بالوظيفة التي تقوم بها أو مقدار المال الذي تجنيه من القيام بها؛ ولا يتعلّق الأمر فقط بما إذا كنت قد ذهبت إلى الجامعة أم لا، أو أيّ جامعة ذهبت إليها. فوفقًا لباختين، تتحدّث كلّ مجموعة اجتماعيّة «بلهجتها الاجتماعيّة» الخاصّة بها - وتمتلك لغتها الفريدة. الطبقة هي شيء تحت ملابسك، وتحت جلدك، وفي نفسك، وفي صميم وجودك. ومن هنا تحدد الحضور المرئي للطبقة المثقّفة خلال هذه الفترة، فلم تكن هذه الطبقة قادرة على تمثيل إرادة البلاد، كما أنّها لم تكن تتمتّع بجاذبيّة قويّة، ولا ينبغي فرض هذا الدور في البحث عن مزيد من الأبنية التي تدعم ديناميكيّة الحياة الأهليّة، وفي الوقت نفسه تكون نقطة مقاومة. وهذا النهج الذي تبنّاه بيير بورديو، وأكّده في معرض مفهومه عن «الحقل»:

البنية الاجتماعيّة التي تحدّد السلوك الفرد، ويؤمن مع بالانديه بأن الصراعات الاجتماعيّة هي صراعات من أجل المعنى، والواقع الاجتماعي مرتبط بالنضال ضدّ الاستعمار. ومن الجدير بالذكر أن بورديو استخدم بشكل صريح مفهوم «الوضع الاستعماري» في كتابه: «علم اجتماع الجزائر»، فقد كتب: «من المهمّ أن نفهم نمط حياة الأوروبيّين ونظام قيمهم في إطار الوضع الاستعماري، وعلاقتهم بالشعوب المستعمرة. إنّ الاحتكاك الثقافي فشل في ربط الاستعمار الأوروبي مع الأبنية الاجتماعيّة المصريّة نتيجة أنّ في مصر لم تكن البنى هرميّة، ولكن بنية عالميّة متنوّعة ثقافيًّا، ومحافظة على العادات والقيم الاجتماعيّة»[١].

رابعًا: لا ينبغي لمصر أن تكون جزءًا من مرتكبي الوضع الاستعماري البريطاني. لقد عجز المجتمع الأكاديمي الغربي لفترة طويلة عن تحديد سلسلة أنشطة الغزو المصريّة في فترة محمّد علي، وخاصّة طبيعة غزو منطقة السودان. في عام ١٨٨٢م، بعد احتلال البريطانيّين لمصر، كان السعي إلى الاستقلال والوحدة بين القوميّين المصريّين نداءً لغريزة الشعب المستعمر. ومع تكثيف الضغط الاستعماري البريطاني، زادت القوميّة المصريّة أيضًا. إنّ طريقة البحث عن الابتكار هي إدراك كارثي للشعب المستعمر بغضّ النظر عن العواقب. تقليديًّا، فإنّ تاريخ مصر الحديثة هو محاولة للتخلّص من حكم الإمبراطوريّة العثمانيّة والحكم الاستعماري البريطاني، والسعي إلى الاستقلال.

وبعبارة أخرى فإنّ مصر تأمل في الحصول على حقّ الحكم في السودان لتدلّ على معارضتها للوضع التاريخي القائم على فصل بريطانيا لمصر، وكان علماء الثقافة العرب أوّل من طرحوا سؤالاً هل **مصر ضحيّة للاستعمار أم نموذج للحكم الاستعماري؟** لا يمكن أن تكون مصر هذا النموذج؛ لأنّ القوّة الاستعماريّة لا تعمل فقط من خلال قمع المؤسّسات التقليديّة غير الغربيّة، ولكن أيضًا من خلال قمع الميول الطبيعيّة التي تكمن

١. حميدات، صالح؛ بورديو، بيار، مقاربة انعكاسيّة الأبستمولوجيا العلوم الاجتماعيّة، ص٣٠٢.

وراء التقاليد غير الغربيّة مثال ذلك الأزهر الشريف والطبقات الاجتماعيّة العليا. ورغم أنّ الحكم الاستعماري انتهى في أغلب دول الشرق الأوسط منذ نحو ستين عامًا، فإنّ إرثه لا يزال قائمًا في السياسة المعاصرة في الشرق الأوسط[1].

يبدو الاستعمار وكأنّه اختبار مفروض على مجتمعات معيّنة، أو إذا جاز لنا أن نسمّيه كذلك، فهو تجربة اجتماعيّة بدائيّة. ولولا خميرة النضال الجماعي المصري في الفترة التاريخيّة السعيدة، ما ترسّخت فكرة مفادها أنّه إلى جانب هذا النضال من أجل التحرّر السياسي المباشر، سوف يحتاج المصريّون الآن إلى العمل نحو إنشاء مزيد من المؤسّسات الوطنيّة المميّزة من قبل أبناء البرجوازيّة المحلّيّة الناشئة للتخطيط مع الدولة المصريّة لتثبيت قيم تلك التشكيلات الاجتماعيّة المكتومة دهرًا اليوم.

1. Jakes, A. Boom, Bugs, Bust: Egypt's Ecology of Interest, (1882- 1914). Antipode, 49 (4) 1038.

قائمة المصادر والمراجع

١. أنيس، محمّد، الحركة الوطنيّة في مواجهة الاستعمار الأوروبي، مجلّة الكاتب (مصر)، ١٩٦٦م.

٢. بالانديه، جورج، الأنثروبولوجيا السياسيّة، ترجمة: علي المصري، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٧م.

٣. حامد، رؤوف عباس، الحركات العمّاليّة في مصر، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠٢٣م.

٤. حميدات، صالح؛ بورديو، بيار، مقاربة انعكاسيّة الأبستمولوجيا العلوم الاجتماعيّة، مجلـّة علوم الانسان والمجتمع، المجلد ١٠، العدد ٣، ٢٠٢١م.

٥. زايد، أحمد، آفاق جديدة في نظريّة علم الاجتماع: نظريّة تشكّل البنية، المجلّة الاجتماعيّة القوميّة (المركز القومي للبحوث الاجتماعيّة)، المجلد ٣٣، العدد (١-٢)، ١٩٩٦م.

٦. زغلول، آمال سعد، المثقّفون المصريّون ودورهم في ثورة ١٩١٩م، مركز المحروسة للنشر والخدمات، القاهرة، ٢٠٢١م.

٧. الشاكري، أمنية، المعمل الاجتماعي الكبير: موضوعات المعرفة في مصر المستعمرة وما بعد الكولونيالية، ترجمة: أحمد محمود، المركز القومي للكتاب، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨. الطهطاوي، رفاعة، كتاب مناهج الألباب المصريّة في مباهج الآداب العصرية، مؤسس هنداوي، القاهرة، ٢٠١٤م.

٩. العربي، بحسون، بين التاريخ والأنثروبولوجيا، دراسة في الأنثروبولوجيا الاستعماريّة، المجلة المغاربيّة للدراسات التاريخية والاجتماعيّة، المجلد ٢، ٢٠٢١م.

١٠. فانون، فرانز، معذبو الأرض، ترجمة: سامي الدروبي وجمال الاتاسي، مدارات للبحث والنشر، القاهرة، ٢٠١٥م.

١١. فياض، محمود؛ الدين حسام، الأنثروبولوجيا بين الأكاديمية والأداتين: (دراسة تحليليّة - نقديّة لطبيعة العلاقة بين الأنثروبولوجيا والاستعمار)، مجلّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعي، ٢٠٢١م.

المصادر الأجنبيّة

1. Balandier, G., The Colonial Situation: A Theoretical Approach, in: Stephen Howe, ed., The New Imperial Histories Reader, London: Routledge, 2020.
2. Cole, J., Feminism, Class, and Islam in Turn-of-the-Century Egypt, International Journal of Middle East Studies, Nov., 1981, Vol. 13, No. 4.
3. Cooper, F, Colonialism in Question: Theory, Knowledge, History, Berkeley: University of California Press, 2005.
4. Ekeh, P, «COLONIALISM AND SOCIAL STRUCTURE»: An Inaugural Lecture delivered at the University of Ibadan on Thursday, 5 June, 1980.
5. Gagné, N., The Study of Colonial Situations: The Emergence of a New General Approach, Reviews in Anthropology, 2012.
6. Howard, J., A Social Cognitive Conception of Social Structure, Social Psychology Quarterly, Vol. 57, No. 3, 1994.
7. Jakes, A. Boom, Bugs, Bust: Egypt's Ecology of Interest, (1882-1914). Antipode, 2016.
8. Mann, G., Anti-Colonialism and Social Science: Georges Balandier, Madeira Keita, and «the Colonial Situation» in French Africa, Comparative Studies in Society and History, 2013.
9. Powell, Eve Troutt, A Different Shade of Colonialism Egypt, Great Britain, and the Mastery of the Sudan, London: University of California Press, 2003.
10. Wu, Z., Colonized colonialists-alternative colonialism, Journal of Political Science Research, Vol. 5, Num. 1, 2024.
11. Ziltener, P., & Kunzler, D. Impacts of Colonialism: A Research Survey. Journal of World-Systems Research, 2013.